الفتى الأسمر

أسامة بن زيد

رضي الله عنهما

أنت لست مسؤولا عن شكلك..

أنت مسؤول فقط عن أعمالك..

obeikandl.com

في العام الرابع من البعثة.. وبينما كان الرسول ﷺ والصحابة يشقون طريق الرسالة الصعب في مكة، وبينما كانت قريش تتحفز للكيد والحرب لكل من يتبع الدين الجديد..

ووسط هموم الرسول ﷺ وتبعاته التي تنوء بها الجبال، أهلت الدنيا عليه ببشرى خففت عنه الكثير.

لقد أنجب حبيبه « زيد بن حارثة» وزوجته أم أيمن ، ولدهما الأول.. أسامة.

كان فرح الرسول ﷺ لا يوصف بولد زيد، والذي بدأت حياته الزوجية تستقر مع أم أيمن بعد تجربته غير الموفقة مع ابنة عم الرسول ﷺ زينت بنت جحش.

وشابه أسامة أباه « زيدا» في الكثير..

وكان له شرف القرب الشديد من الرسول ﷺ.

وكما كان لأبيه شرف ذكره في كتاب الله، وهوالصحابي الوحيد الذي نال هذا الشرف، فلقد كان لأسامة شرف أنه لم يتعرض لمخاطر الجاهلية قط.

فلقد نشأ أسامة مسلما، من والدين مسلمين، لهما من المكانة والحب الكثير والكثير عند رسول الله ﷺ.

وتمر الأيام..

وكلما كبر سن أسامة، كبر معه حب الرسول ﷺ له، فأحبه ﷺ كأشد ما يكون الحب ،مثلما أحب أباه.

وشيئا فشيئا، يشتد عود أسامة، ويساعده قربه من الرسول ﷺ في أن تظهر علامات التميز في شخصيته.

الذكاء والوقار والحكمة وملكات القيادة..

لاحظ الرسول ﷺ تلك الصفات في أسامة، كما لاحظها في أبيه من قبل.

وفي سن السادسة عشرة، وفي السنة السابعة من الهجرة، قضى الله أن يفقد أسامة أباه زيد بن حارثة، بعد أن اختاره الله شهيدا في معركة مؤتة.

ونظر الرسول ﷺ إلى أسامة، ليزداد عطفه عليه وحبه له أضعافا مضاعفة، حتى قالت السيدة عائشة رضي الله عنها :

– ما ينبغي لأحد أن يبغض أسامة بن زيد، بعدما سمعت رسول الله ﷺ يقول:

« من كان يحب الله ورسوله، فليحب أسامة».

كان الرسول ﷺ يرى « زيد بن حارثة» في ولده أسامة، وكان كلما اشتاق إلى أبيه، نظر إلى أسامة وأملى نظره منه، ودار في رأسه شريط الذكريات.

وكما رأى الرسول ﷺ في زيد، رأى في أسامة..

فلقد رأى فيه شابا قادرا على حمل لواء الدعوة والذود عن الإسلام ، بما له من قدرات ومهارات، راقبها الرسول ﷺ ووجهها على مر السنين.

لذا.. وبعد عامين من استشهاد أبيه، بعثه الرسول ﷺ على رأس سرية في حرب بعض المشركين الذين يناوئون الإسلام.

وكانت هذه أول إمارة لأسامة..

وكان أسامة عند حسن ظن نبيه ﷺ ، فلفقد حقق نجاحا كبيرا في المعركة، ووصل الخبر إلى رسول الله ﷺ ليثلج صدره، وينتظر أسامة على شوق..

وما إن وصل أسامة، حتى أجلسه بجانبه، وبكل لهفة الحبيب إلى حبيبه، قربه الرسول ﷺ منه قائلا له:

« احك لي يا أسامة..احك لي ».

وبكل حماس، أخذ أسامة يسرد الأحداث ويصف سير المعركة إلى أن قال:

– لما انهزم القوم، أدركت رجلا وهويت إليه بالرمح، فقال: لا إله إلا الله، فطعنته وقتلته.

وعندها تغير وجه الرسول ﷺ، وبدا عليه الغضب الشديد وهو يقول لأسامة:

« ويحك يا أسامة..!

فكيف لك بلا إله إلا الله..؟

ويحك يا أسامة..

فكيف لك بلا إله إلا الله..؟»

ظل الرسول ﷺ يرددها في غضب وانزعاج شديدين، والهلع يكاد ينطق على وجه أسامة، حتى تمنى لو لم يخرج في السرية أو يعمل عملا للإسلام من قبل، وود لو كان هذا اللقاء هو أول عهده بالإسلام.

إلا أنه كان درسا لأسامة، لم ينسه قط طيلة حياته.

وظل أسامة في مدرسة حبيبه رسول الله ﷺ.. يتعلم ويتعلم..

واستغل الصحابة يوما قرابة الرسول ﷺ الشديدة من أسامة وحبه الكبير له، في أن يتوسط عند الرسول ﷺ، ليرفع الحد عن امرأة مخزومية سرقت، وقالوا حينها:

– ومن يجترئ على أن يحدث الرسول ﷺ في هذا الأمر، إلا أسامة بن زيد، حب رسول الله ﷺ ؟

وعندما فاتح أسامة الرسول ﷺ في الأمر، غضب الرسول ﷺ بشدة، وقال لأسامة في انفعال:

« يا أسامة..أتشفع في حد من حدود الله ؟».

وخرج الرسول ﷺ إلى الناس ليخطب فيهم قائلا:

« إنما أهلك الذين من قبلكم، أنهم إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف، أقاموا عليه الحد.. وايم الله، لوأن فاطمة بنت محمد سرقت، لقطعت يدها».

وينظر أسامة إلى الرسول ﷺ، ويستمع بكل جوارحه، ويفهم ويعي..

يفهم ويعى أن الإسلام هو دين المساواة والعدل، لا فرق فيه بين غني وفقير، أو قوي وضعيف، أو شريف ذي مكانة في قومه، ورجل بسيط لا سند له.

الجميع أمام الله سواء..

ومن يخطئ يحاسب..

حتى وإن كانت فاطمة بنت محمد ﷺ .

ولم يكن هذا الموقف أو ذاك ، ليزعزع ثقة الرسول ﷺ في أسامة وإيمانه بقدراته العسكرية، ولم يكن ليفكر للحظة أن لونه الأسمر أو قصره وجسده المتواضع، ليحول دون أن يعطي له فرصة يستحقها.

إنها المساواة التي علمها لأسامة منذ قليل.

ولهذا..اتخذ الرسول ﷺ قبيل وفاته قرارا صعبا، لاقى اعتراضا من الصحابة، وأدى إلى جدل واسع.

فبينما كان أسامة لا يزال شابا صغيرا في سن العشرين، قرر الرسول ﷺ أن يكون أسامة على رأس جيش إلى الشام لحرب الروم، مثلما حاربهم أبوه زيد من قبل، وأمره الرسول ﷺ أن يطأ بخيله البلقاء والداروم من أرض فلسطين.

ودهش المسلمون من قرار الرسول ﷺ، وتعجبوا من اختياره لأسامة، في وقت كان يوجد فيه كبار الصحابة كأبي بكر وعمر، وآخرون ممن لهم باع كبير في الخبرة العسكرية كخالد بن الوليد وأبي عبيدة بن الجراح.

إلا أن اقتناع الرسول ﷺ بمواهب أسامة ، جعله يصر على إمارته..

وأصبح أسامة في موقف حرج للغاية، فكيف يقدم على قيادة جيش لا يريده، وكيف يطيعه أناس غير مقتنعين بقيادته.

ووجد الرسول ﷺ المسلمين يتباطؤون في تجهيز الجيش، وسط همهمات لا تنتهي.

وهنا خرج الرسول ﷺ إلى المسلمين – ورغم مرضه– وصعد على المنبر ليقول في قوة:

« أيها الناس، أنفذوا بعث أسامة، فلعمري لئن قلتم في إمارته، لقد قلتم في إمارة أبيه من قبله، وإنه لخليق بالإمارة، وإن كان أبوه لخليقا لها، وإنه لمن أحب الناس إلي بعد أبيه..

وإني لأرجوأن يكون من صلحائكم..

فاستوصوا به خيرا»..

يا لله.. حتى أسامة كان شبيها لأبيه في اعتراض المسلمين على إمارته.

وبعد خطاب الرسول ﷺ، توقف الجدال، وانصاع المسلمون لأمر الرسول ﷺ، وأسرعوا في التجهز للمعركة.

إلا أنه وقبل أن يخرج الجيش للقتال، توفي الرسول ﷺ بعد أن ترك وصيته:

« أنفذوا بعث أسامة.. أنفذوا بعث أسامة ».

وتولى بعده أبو بكر الصديق.

كانت الظروف وقتها قد تغيرت، إلا أن الصديق أبا بكر أصر على تنفيذ وصية الرسول ﷺ، واستمرار أسامة في قيادة الجيش، وقال:

« ما كان لي أن أحل لواء عقده رسول الله ﷺ ».

وخرج الصديق يودع الجيش ماشيا، بينما كان أسامة بن زيد على فرسه، وعندها قال أسامة في خجل:

– يا خليفة رسول الله ﷺ.. لتركبن أو لأنزلن.

نظر خليفة المسلمين إلى أسامة قائلا له في تواضع:

– والله لا تنزل، ووالله لا أركب، وما علي أن أغبر قدمي في سبيل الله ساعة ؟

ولقد كان المشهد كله ينطق بالروعة، وهو يظهر عظمة الإسلام، ومنهجه في تقدير الآخرين واحترامهم، دون النظر إلى المكانة أوالسن أواللون.

فلقد استأذن خليفة المسلمين أبو بكر أسامة، أن يترك له عمر بن الخطاب ليستخلفه على المدينة قائلا:

– إن رأيت أن تعينني بعمر فافعل.

ويخرج أبو بكر خليفة المسلمين، تحت قيادة أسامة ابن العشرين عاما !

وتصل الأخبار لهرقل ملك الروم.. فيذهل مرتين.

مرة لتماسك المسلمين واستقرارهم رغم فاجعة وفاة الرسول ﷺ، والسهولة الشديدة التي تم

بها انتقال السلطة إلى أبي بكر، دون نزاعات أو فتن.

ومرة لإصرارهم على أن يتولى الفتى الصغير أسامة، ابن العشرين عاما، قيادة جيش في معركة كبرى كهذه.

إلا أنه كان على موعد مع ذهول ثالث، لم يتخيله.

فلقد انتصر عليه الشاب الصغير انتصارا ساحقا ماحقا، في معركة هي الأولى والأخيرة في تاريخ المسلمين التي تنتهي دون أي ضحايا.

نعم..دون أي ضحايا..

بما كان يشكل إعجازا عسكريا ليس له مثيل في تاريخ العسكرية.

لقد أثبت أسامة أنه يستحق ثقة الرسول ﷺ، وأثبت الفتى الأسمر، أن مواهبه وقدراته كانت أكبر من سنه بكثير، بعد أن أصبح أصغر قائد عسكري في تاريخ الإسلام.

وبهر أسامة الجميع، كما بهر أبوه الجميع من قبل، بخطته العبقرية التي وضعها في معركة مؤتة.

ووصل الخبر إلى المدينة، والناس غير مصدقين ما حدث، وأخذوا يتناقلون كلمات الإعجاب والتقدير، وهم يتذكرون رأي الرسول ﷺ في أسامة قائلين:

– ما رأينا جيشا أسلم من جيش أسامة.

ومرت السنون تلوالسنون، وأسامة يشارك في بناء دولة الإسلام، وهو يراها تقوى وتتسع يوما بعد يوم.

ولقد نال أسامة في عهد عمر بن الخطاب احتراما وتقديرا كبيرين، حتى أنه فضله على ابنه عبد الله، عندما كان يوزع عليهم رواتبهم من بيت المال، فأعطاه ضعف ما أعطى ابنه عبد الله، وعندها.. انزعج عبد الله كثيرا، لخوفه من تأخر مكانته في الإسلام، فلقد كانت الرواتب توزع وفقا لحجم التضحية والفداء، وعندها تسائل عبد الله في خوف قائلا:

– لقد فضلت علي أسامة، وقد شهدت مع رسول الله ﷺ ما لم يشهد!

لم يكن عبد الله بن عمر يقصد بما قال أن يطلب مالا لقاء عمله في سبيل الله ، وإنما كان مقصده أن يثبت لأبيه أنه ضحى مثلما ضحى أسامة، وربما أكثر.

وهنا لاحقه أبوه عمر قائلا في حزم:

– إن أسامة كان أحب إلى رسول الله ﷺ منك..

وأبوه كان أحب إلى رسول الله ﷺ من أبيك.

وظل أسامة وسط إخوانه،حتى جاء الوقت الذي انعزل فيه عن الجميع، وهو في قمة الأسى والحزن.

إنها الفتنة الكبرى .

مقتل الخليفة عثمان بن عفان، والحرب بين علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان.

لم يستطع أسامة أن يتحمل ما يحدث.

ولم يستطع أن يرى بعينيه صحابة رسول الله ﷺ يتقاتلون أمام عينيه.

وجاءه ساعتها بعض الصحابة يناقشونه في موقفه.

وهنا تذكر أسامة درس النبى ﷺ البليغ من سنوات، حين عنفه على قتله لرجل محارب بعد أن قال: لا إله إلا الله. وهو يعلم تمام العلم، أنه ما قالها إلا للنجاة من القتل، وليس لإيمان صادق في قلبه، إنما كان الأمر كله مراوغة للإفلات من موت محقق..

وهنا قال لأصحابه في صرامة :

- لا أقاتل أحدا يقول: لا إله إلا الله أبدا.

فقال أحدهم:

ألم يقل الله: ﴿ وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَلَا عُدۡوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ١٩٣].

رد أسامة وقد بدا على ملامحه الحزن والضيق قائلا :

- أولئك هم المشركون، ولقد قاتلناهم حتى لم تكن فتنة، وكان الدين كله لله.

وتركه أصحابه، وتركهم أسامة، وترك صراعهم المرير..

وأخذ يتذكر عندما كان حبيبه ﷺ متلهفا لرؤيته، ليحكي له ما فعل في السرية التي بعثه لها.

الآن.. هو في لهفة وشوق إلى حبيبه ﷺ ، ليحكي له وهو يتحرق ألما ، ماذا ألم بالمسلمين بعد وفاته.

ولقد ظل أسامة على هذا الاشتياق، حتى أذن له الله بلقاء حبيبه في العام الرابع والخمسين من الهجرة، وعندما بلغ عامه الثالث والستين .

ورفرفت روحه مسرعة للقاء الحبيب ﷺ...

إلى رسول الله ﷺ..

ليظل أسامة يحكي..

ويحكي...

ويحكي...

١ – من علامات التقوى أن نحب لله ونكره لله (الرسول ﷺ يقول: « من كان يحب الله ورسوله، فليحب أسامة».

يطوع الإسلام كل جوارح الجسد ليكون الجسد كله عابدا لله، مستسلما لأوامره، فهو يريد ألا ينطق لسانه السوء ولا تتحرك يده في حرام، ولا تسير رجله إلى معصية.

ليس هذا فحسب، بل إن الله يريد أن يكون قلب المسلم طوعا لله، يحب الطاعة ويكره المعصية، ولكن.. هل يستطيع الإنسان منا أن يطوع قلبه بهذه الصورة ؟

لا يمكن أن يصل إلى هذه المرحلة، إلى بعد مشوار طويل مع الالتزام، يبدأ فيه بمرحلة بتغيير الأفكار، ليتبعها برحلة الصراع بين ما تحبه نفسه، وما يبغضه الله، وسيخوض في هذا الصراع جولات عديدة، وكلما كان الشخص قادرا على حسم هذه الجولات لصالحه (لصالح رضا الله)، كلما اتجهت النفس إلى التأقلم على الوضع الجديد، فالنفس تتبع المنتصر دائما.

وكثيرا ما أحب أناس أشياء في حياتهم، ثم عادوا يكرهونها بعدما تغيرت أفكارهم ورؤيتهم للحياة، وكثيرا ما أعجب شباب بأناس فاسدين، ثم اشمأزت منهم نفوسهم بعد التزامهم.

إن هناك أدعية، يرجو بها المسلم ربه أن يطوع قلبه لحب ما يحبه الله مثل: (اللهم ارزقنا حبك وحب من يحبك.... اللهم حبب إلينا الإيمان وزينه في قلوبنا.....إلخ.)

وإذا اجتهد المسلم بإخلاص، في محاولات التقرب إلى الله ونيل رضاه بشتى الطرق، فسينعم عليه الله يوما بنعمة حب الطاعة، فتصبح الطاعة (عبادات وأخلاق ومعاملات) جزءا يوميا من حياته، لا يستطيع أن يعيش بدونها، وستخف جدا حدة الصراع مع النفس، بعدما انسجمت مع طاعة ربها، وأصبحت تسعد بها، وتتألم لتركها.

وعندما يصل المسلم إلى هذه المرحلة، يكون طريقه سهلا ممهدا إلى تحقيق حلمه الذي يعيش من أجله..الجنة.

٢ – الإسلام يشدد على حرمة الدم، حتى لكافر يقول: لا إله إلا الله، وقد ظن المسلم الذي يحاربه أنه إنما قالها خوفا من القتل (الرسول ﷺ يغضب بشدة من أسامة بعد معرفته بقتل مشرك بعد شهادته وقوله: لا إله إلا الله).

للأسف.. فرح الكثير بالعمليات التى نفذتها الجماعات المسلحة وتنظيم القاعدة، والتى راح ضحيتها مدنيون، سواء مسلمون أو أجانب، واكتشف الجميع بعد ما حدث، أن هذه الأحداث كان لها أكبر الأثر في تشويه صورة المسلمين والإسلام في العالم، بل وتشويه صورة الملتزمين أمام المسلمين أنفسهم، ونشأة شعور مرضي بالتخوف منهم، ومن فكرة الحكم بالمنهج الإسلامي، وأصبح هناك

تهمة جاهزة لأي ملتزم يخطئ، ولو خطأ بسيطا.. بأنه (إرهابي)

هذا التهور أضر بالإسلام ضررا بالغا، عطل مسيرة الدعوة سنوات طويلة، ومنع دعوة الإسلام أن تصل للناس إلا بشق الأنفس.

إن شريعة الإسلام تفضل أن تبرئ ألف متهم، لم تثبت عليهم الأدلة الكافية لإدانتهم، من أن تقرر اتهام فرد واحد ظلما. فكيف لهذه الشريعة أن تبيح قتل الناس أفرادا وجماعات بهذه الصورة، مسلمين وغير مسلمين ؟ وما النتيجة التي وصلنا إليها من جراء هذا الفهم الغريب لمعنى الجهاد، وهذا التصور الناقص للدعوة إلى الله ؟

لقد عاش المسلمون سنوات صعبة في مكة، عذبوا خلالها عذابا شديدا، وحوصروا حصارا كان هدفه قتلهم جوعا، ومع ذلك لم يفكر أحد في أن يقتل مشركا.

لقد أثبتت الأيام الخطأ الشنيع لهذه التصرفات على العالم الإسلامي، حكومات وشعوبا، ونحتاج الآن إلى سنوات وسنوات لإصلاح ما جناه آخرون، في حق الإسلام والمسلمين وغير المسلمين..

٣- حساب الضعيف والفقير، وعدم حساب ذوي النفوذ والقوة ، أصبح سمة من سمات العرب الآن (الرسول ﷺ لا يقبل وساطة أسامة للعفو عن المرأة المخزومية ويخبره بأن التفاوت في تطبيق القانون بين الأغنياء والفقراء، سبب للهلاك) .

أمر محزن أن نرى بين الحين والآخر في الدول التي لا تدين بالإسلام، شخصيات مسئولة في الدولة تصل إلى شخص الرئيس نفسه، وهو يحاكم أمام شعبه، ويقف الرئيس محترما القضاء والشعب، يحاول أن يدافع ويبرر، لم يقل واحد منهم: كيف تحاسبونني وأنا الرئيس ؟ ولم يأمر معاونيه بالتحايل لوضع القضية في طي النسيان، ولو فعل ذلك، سيأتي يوم يكشف الحقيقة ويفضحه، ويفضح معاونيه، وفي بلادنا (الإسلامية) التي جاهد رسولها ﷺ ثلاثة وعشرين عاما ، من أجل تحقيق مبادئ العدالة والمساواة بين البشر- تنفذ الأحكام بسرعة الصاروخ لمن يراد له أن يسجن أو يعدم باسم القانون والعدالة، وأمام شخصيات أخرى تحفظ القضايا لعدم كفاية الأدلة، فلقد كان النفوذ كافيا لعدم كفاية الأدلة، وكانت المصالح كافية لعدم كفاية الأدلة.

لقد كان الرسول ﷺ على استعداد لأن يقطع يد ابنته فاطمة لو سرقت، فعاشوا أعزة كراما، وملكوا الدنيا وأقاموا حضارة رائعة.

وكان التفاوت في محاكمة الناس من قبلهم، سببا في هلاكهم..

وكان سببا في شقائنا.. من بعدهم.

٤- إعطاء الفرص للمواهب من واجبات القيادة (الرسول ﷺ يعطي الفرصة لأسامة، لقيادة الجيش في سن صغيرة، وسط اعتراض من المسلمين).

من واجبات القيادة أن تعطى الفرص للمواهب والقدرات، كى تظهر وتثبت وجودها، وربما أصر الرسول ﷺ على تولية أسامة أمر الجيش في هذه السن الصغيرة (عشرين عاما) ومن بين المسلمين أبو بكر وعمر وخالد بن الوليد وغيرهم، إيمانا منه بأنه ربما لا تأتي الفرصة لأسامة من بعده، فربما صغر سن أسامة، ومواصفاته الشكلية، تجعله بعيدا عن دائرة اختياره كقائد، وربما يعذر غيره في عدم اختياره، فلا أحد يعرفه كما يعرفه الرسول ﷺ، ولا أحد يعرف مهاراته القيادية وقدراته القتالية كما يعرفها. ومن هنا.. فعلى القيادة أن تعطى الفرصة لأشخاص، ربما لن يتوسم فيهم غيرهم الموهبة.. فأعطى القيادة لأسامة وأصر عليها، ورغم وفاة الرسول ﷺ، فلقد أصر أبو بكر على خروج الجيش بقيادة أسامة، أدرك الجميع بعد المعركة، صدق رؤية الرسول ﷺ في أسامة بعد، نجاحه الكبير في قيادة الجيش.

إلا أنه ورغم ذلك، فلم يرشح أسامة للقيادة بعدها، لدخول البلاد في مراحل صعبة من ناحية، واختلاف وجهات نظر الخلفاء بعد الرسول ﷺ من ناحية أخرى، إلا أنه على كل حال كان للرسول ﷺ فضل اكتشاف أسامة، وإظهاره أمام الجميع كقائد موهوب.

٥- هل نستطيع أن يدفعنا العدل إلى أن نفضل أحدا على أبنائنا، إذا ما كانت لنا سلطة اتخاذ القرار؟ (عمر بن الخطاب يفضل أسامة على ابنه في توزيع الرواتب) .

بعض مديروالمؤسسات يظهر تميزهم الواضح لأبنائهم داخل المؤسسة، فربما تطبق القوانين على الجميع، ثم تقف عاجزة أمام ابن المدير، وربما تكون فرص النجاح والتفوق والترقي أيضا محجوزة منذ زمن، ودون جهد.

إنه سلوك المحاباة السيئ الذي يهدر قيم العدل ويضعف الانتماء ويحطم المعنويات، ويشعر الكثير بالحزن؛ لأنهم لم يكونوا أبناء لفلان، ويجعل قيمة الجهد والكفاح تتوارى أمام قيم الوساطة والفهلوة.

يقولون: إن العدل أعمى، فهو لا يعرف أن هذا ابنا لشخص مرموق، أو أن ذاك الشخص ابنا لعامل فقير في مصنع، وهذا العدل الأعمى، هوالذي ينير الطريق لملايين الشباب، لكي يقبلوا على الحياة بحماس، ويصنعوا المستقبل.

* * *